سورة النمل

مكية، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل أربع وتسعون

[نزلت بعد الشعراء]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿طسٓ﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين: إما اللوح، وإبانته: أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. وإما السورة. وإما القرآن، وإبانتهما: أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع، وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه. فإن قلت: لم نكر الكتاب المبين؟ قلت: ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له، كقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥]. فإن قلت: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قلت: كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم، لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدّق لما بين يديه، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي كتاب مبين. وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير: وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين؟ قلت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر، وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب وضرب فيه ترجح، فالأول نحو قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ومنه ما نحن بصدده. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال، أي: هادية ومبشرة؛ والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه، على: هي هدى

وبشرى، وعلى البدل من الآيات، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر، أي: جمعت أنها آيات، وأنها هدى وبشرى. والمعنى في كونها هدى للمؤمنين: أنها زائدة في هداهم. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. فإن قلت: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه. ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرّر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾

فإن قلت: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأنعام: ٤٣]؟ قلت: بين الإسنادين فرق، وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة، وإسناده إلى الله عز وجل[2] مجاز، وله طريقان في علم البيان. أحدهما:

---

(١) قال محمود: «كرر الضمير حتى صار معنى الكلام: ولا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق» قال أحمد: قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أن معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببين، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر. وأما وجه تكراره هنا ـ والله أعلم ـ فهو أنه لما كان أصل الكلام: وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما، فطرى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور. حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب التطرية، فأقرب منها أن الشاعر قال:

سل ذو عجل ذا وألحقنا بذا الشحم إنا قد مللناه بخل

والأصل: وألحقنا بذا الشحم، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنى الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما، فقدر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآلة التعريف فطراها ثانية، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف أسند التزيين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قلت: إن بين الإسنادين فرقاً، فالإسناد إلى الله مجاز. وإلى الشيطان حقيقة. وقد روي عن الحسن أن المراد زينا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يهتدوا إلى العمل بها، قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وامتناع أن يخلق الله =

أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة. والثاني: أن يكون من المجاز الحكميّ، فالطريق الأوّل: أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق. وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه، ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم. وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين، فأسند إليه لأن المجاز الحكميّ يصححه بعض الملابسات. وقيل: هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها، زينها لهم الله فعموها عنها وضلوا، ويعزى إلى الحسن. والعمه: التحير والتردّد، كما يكون حال الضال عن الطريق. وعن بعض الأعراب: أنه دخل السوق وما أبصرها قط، قال: رأيت الناس عمهين، أراد: متردّدين في / ٢/ ٦٤ب أعمالهم وأشغالهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر. و﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشدّ الناس خسرانا؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿مِن﴾ عند أيّ ﴿حَكِيمٍ﴾ وأيّ ﴿عَلِيمٍ﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين. وهذه الآية بساط وتمهيد، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمر، وهو: اذكر، كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى. ويجوز أن ينتصب بعليم. وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام

= تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازاً، وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر: من أن المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وأنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد؛ على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومما يبعد حمله على أعمال البر: إضافة الأعمال إليهم في قوله (أعمالهم) وأعمال البر ليست مضافة إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ فأطلق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم، لأنه صدر منهم، والله أعلم.

غير امرأته، وقد كنى الله عنها بالأهل، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع، وهو قوله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾. الشهاب: الشعلة. والقبس: النار المقبوسة، وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبساً وغير قبس. ومن قرأ بالتنوين: جعل القبس بدلاً، أو صفة لما فيه من معنى القبس. والخبر: ما يخبر به عن حال الطريق، لأنه كان قد ضله. فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر: كالمتدافعين؛ لأنّ أحدهما ترجّ والآخر تيقن. قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه. سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء بأو دون الواو؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إمّا هداية الطريق؛ وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً، وهما العزّان: عز الدنيا، وعز الآخرة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿أَنۢ﴾هي المفسرة؛ لأنّ النداء فيه معنى القول. والمعنى: قيل له بورك. فإن قلت: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره: نودي بأنه بورك. والضمير ضمير الشأن؟ قلت: لا، لأنه لا بدّ من «قد». فإن قلت: على إضمارها؟ قلت: لا يصح؛ لأنها علامة لا تحذف. ومعنى ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ بورك من في مكان النار، ومن حول مكانها. ومكانها: البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وتدل عليه قراءة أبيّ. تباركت الأرض ومن حولها. وعنه: بوركت النار؛ والذي بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر ديني فيها؛ وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه؛ وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها، ويبث آثار يمنه في أباعدها، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة. وقيل: المراد بالمبارك فيهم: موسى والملائكة الحاضرون. والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ وحقت أن تكون كذلك، فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا. فإن قلت: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلت: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين،

تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

الهاء في ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن، والشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر. وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله، يعني: أنّ مكلمك أنا، والله بيان لأنا. والعزيز الحكيم: صفتان للمبين، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة، يريد: أنا القويّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية، الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾

فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾؟ قلت: على بورك؛ لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك: كلاهما تفسير لنودي. والمعنى: قيل له بورك من في النار، وقيل له: ألق عصاك. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ على تكرير حرف التفسير، كما تقول: كتبت إليك أن حج وأن اعتمر، وإن شئت أن حج واعتمر. وقرأ الحسن: جأنّ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين / ٢/ ٦٥أ، فيقول: شأبّة ودأبّة. ومنها قراءة عمرو بن عبيد: ولا الضألين ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، يقال: عقب المقاتل، إذا كرّ بعد الفرار؛ قال [من الطويل]:

فَمَا عَقَّبُوا إِذْ قِيلَ: هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ؟ وَلاَ نَزَلُوا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ مَنْزِلاَ[1]

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن» لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل، كان ذلك مظنة لطروّ الشبهة، فاستدرك ذلك. والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزة القبطي، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى، وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها. وسماه ظلماً، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ والحسن، والسوء: حسن التوبة، وقبح الذنب. وقرئ: ألا من ظلم، بحرف التنبيه. وعن أبي عمرو

---

(١) يصف قوماً بالجبن، وإنهم إن قيل: هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فما رجعوا إليها، ولا نزلوا يوم الحرب منزلاً من منازلها، أي: لم يقدموا مرة على العدو. وروي: إذ قيل، أي: حين ذلك.

في رواية عصمة: حسناً.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

و﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ كلام مستأنف، وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف. والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ ونحوه [من الوافر]:

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ: نَحْسُدُ الأَنَسَ الطَّعَامَا[1]

ويجوز أن يكون المعنى: وألق عصاك، وأدخل يدك: في تسع آيات، أي: في جملة تسع آيات وعدادهنّ. ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾

المبصرة: الظاهرة البينة. جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها، لأنهم لابسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها. ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار: كل ناظر فيها من كافة أولي العقل، وأن يراد إبصار فرعون وملئه، لقوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أو جعلت كأنها تبصر فتهدي، لأنّ العمي لا تقدر على الاهتداء، فضلا أن تهدي غيرها. ومنه قولهم: كلمة عيناء، وكلمة عوراء، لأن الكلمة الحسنة ترشد، والسيئة تغوي. ونحوه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فوصفها بالبصارة، كما وصفها بالإبصار. وقرأ عليّ بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة: مبصرة، وهي نحو: مجبنة ومبخلة ومجفرة[2]، أي: مكانا يكثر فيه التبصر.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

الواو في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واو الحال، وقد بعدها مضمرة، والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون وقرئ: عليا، وعليا بالضم والكسر، كما قرئ عتيا، وعتيا.

---

(١) تقدم.

(٢) قوله «ومجفرة» في الصحاح «جفر الفحل عن الضراب»: إذا انقطع عنه. ومنه قيل: الصوم مجفرة، أي قاطع للنكاح. (ع)

وفائدة ذكر الأنفس: أنهم جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم. والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين، وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً لا شبهة فيه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿عِلْمًا﴾طائفة من العلم[1] أو علماً سنياً غزيراً. فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه[2] والفضيلة ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾. والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علماً. أو من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وما سماهم رسول الله ـ ﷺ ـ «ورثة الأنبياء» (١٠٨٩) إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة

١٠٨٩ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم أبو الدرداء والبراء بن عازب وعبد الله بن عمرو، وجابر وابن مسعود. =

---

(١) قال محمود: «معناه طائفة من العلم» قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ ولم يقل الحكيم العليم. والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم؛ فظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه؛ كأنه قال: علماً أي علم، وهو كذلك؛ فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب؛ ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما الله تعالى به وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل؛ والله أعلم.

(٢) قال محمود: «بجلا نعمة الله عليهما من حيث قولهما (فضلنا) وتواضعا بقولهما (على كثير) ولم يقولا: على عباده؛ اعترافاً بأن غيرهما يفضلهما، حذراً من الترفع.
قال السمين الحلبي: وإنما نكر «علماً» تعظيماً له أي علماً سنيًا أو دلالة على التبعيض لأنه قليل جداً بالنسبة إلى علمه تعالى. انتهى. الدر المصون.

لوازم، منها: أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير

= أما حديث أبي الدرداء: فأخرجه أبو داود (٣/ ٣١٧) ـ كتاب العلم ـ باب الحث على طلب العلم ـ (٣٦٤١) وابن ماجه (١/ ٨١) ـ المقدمة ـ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٥/ ١٩٦)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٦٢) (١٦٩٦) والدارمي (١/ ٩٨)، وابن حبان (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) (٨٨)، والخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» رقم (٥).

والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٢٣) (١٢٩)، والبزار في مسنده (١٣٦) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤) (١٧٢)، كلهم من طرق عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس، قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق...

وقال البغوي: حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة.

وقال ابن عبد البر: داود بن جميل مجهول، ولا يعرف هو ولا أبوه، ولا نعلم أحداً روى عنه غير عاصم بن رجاء ـ بتصرف ـ وقال الدارقطني: «مجهول».

وقال الحافظ في التقريب: داود بن جميل ويقال اسمه الوليد، ضعيف قلت وقع تصحيف عند أحمد «عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن حميد به» وصوابه «داود بن جميل» كما أثبتناه.

وأخرجه أحمد أيضاً (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) ـ كتاب العلم ـ (٤٣) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ـ (٢٦٨٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٦٠) حديث رقم (١٦٩).

من طرق عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة....

وقال الترمذي: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء، وليس هو عندي بمتصل... وإنما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ... وهذا أصح... ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح .اهـ.

قلت: وللحديث متابعة عند أبي داود في سننه (٣/ ٣١٧) (٣٦٤٢) من طريق الوليد قال: لقيت شبيب بن شيبة فحدثني به عن عثمان بن أبي سودة عن أبي الدرداء ـ يعني عن النبي ـ ﷺ ـ بمعناه وهذا إسناد حسن يتقوى الحديث به.

وأخرجه أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخه (١/ ٣٩٨) من طريق محمد بن إبراهيم أبو حمزة المروزي قال: نبأنا علي بن الحسن بن شقيق قال: أنبأنا ابن المبارك قال أنبأ يونس بن يزيد عن عطاء الخراساني قال: قال أبو الدرداء سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سلك...» قلت: وهذا إسناد رجال ثقات غير أن عطاء بن أبي مسلم الخرساني لم يسمع من أبي الدرداء وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩) للطبراني في معجمه الكبير من حديث مسلم، عن شعيب بن رزيق سمعت عثمان بن رزيق: سمعت عثمان بن أبي سودة قال: قدم رجل.... فذكر الحديث وفيه «العلماء ورثة الأنبياء» وقال الزيلعي: وهذه الرواية أشبه من رواية أبي داود، وإسناده جيد، وشعيب بن رزيق، قال فيه دحيم: لا بأس به، وقال الدارقطني ثقة، وللحديث طريق سالمة من الضعف والاضطراب رواه الطبراني، في معجمة الكبير فذكره .اهـ.

وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٢٨٦/ ٧٠٣) وقال: صححه الحاكم وابن حبان وغيرهما وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها.

قلت فمن شواهده. =

بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر (١٠٩٠).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

ورث منه النبوّة والملك دون سائر / بنيه ـ وكانوا تسعة عشر ـ وكان داود أكثر تعبداً، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تشهيراً لنعمة الله، وتنويهاً بها، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف،

= حديث عبد الله بن مسعود.

أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ثنا يحيى بن زكريا بن أحمد المصري، ثنا زفر بن الهديل، ثنا أبو حنيفة النعمان بن ثابت، عن حماد عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً «العلماء ورثة الأنبياء».

وحديث جابر بن عبد الله: أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/٤٣٨)، وابن الجوزي في العلل (١/٧٩)، كلاهما من طريق الضحاك بن حجوة قال نا الفريابي قال نا سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء..».

قال ابن الجوزي: حديث لا يصح. قال ابن عدي الضحاك بن حجوة منكر الحديث عن الثقات رواياته مناكير إما متناً وإما إسناداً، وقال ابن حبان، لا يجوز الاحتجاج به .اهـ.

وأما حديث البراء بن عازب وعبد الله بن عمر فذكرهما الزيلعي في تخريج الكشاف وعزاهما لأبي نعيم في كتابه «فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف».

والحديث ذكره البخاري في صحيحه (١/٢١٥) ـ كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم وإن العلماء هم ورثة الأنبياء...

وقال الحافظ ابن حجر: طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء وحسنه حمزة الكتاني وضعفه عندهم سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولم يفصح المصنف بكونه حديثاً فلهذا لا يعد في تعاليقه، لكن إيراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلاً، وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث أبي الدرداء، من حديث واه «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً وفيه إن العلماء ورثة الأنبياء» وله طرق عند الطبراني.

وفي الباب عن البراء وابن عمرو بن العاص أخرجهما أبو نعيم في كتاب «فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف»، وعن ابن مسعود أخرجه ابن حمزة السهمي في تاريخ جرجان، وعن جابر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن محمد الثلجي. وفي إسناده الضحاك بن حجوة. وهو متهم بوضع الحديث. انتهى.

١٠٩٠ ـ تقدم في سورة النساء.

المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم. وقالت العرب: نطقت الحمامة، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير: هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه[1] وأغراضه. ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم: قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس، فقال يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد، فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوى، فقال يقول: كل حيّ ميت، وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة، فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه: والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. وأراد بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كثرة ما أوتي، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه. ومثله قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (١٠٩١)، أي: أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً. فإن قلت: كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يريد نفسه وأباه. والثاني: أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع ـ وكان ملكاً مطاعاً ـ فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها، وليس التكبر من لوازم ذلك، وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه[2] وسياسته مصالح، فيعود تكلف ذلك واجباً. وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدوّ. ألا ترى كيف أمر العباس

١٠٩١ ـ تقدم.

قال الحافظ: تقدم في يوسف.

---

(١) قوله «هو ما يفهم بعضه من بعض معانيه» عبارة النسفي: والمنطق: كل ما يصوت من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اهـ. (ع)

(٢) قوله «وإظهار آيينه» قيل: مراتبه وبهاؤه. وفي نسخه: أبهته، فليحرر. (ع)

ـ رضي الله عنه ـ بأن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ عليه الكتائب (١٠٩٢).

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون لوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة. وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر. ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك لا يتكم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك، فيحكى أنه مر بحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله، خير مما أوتي آل داود ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم، أي: توقف سلاف العسكر[1] حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة.

١٠٩٢ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٩/٣١٦) ـ كتاب المغازي (٦٤) ـ باب أين ركز النبي ـ ﷺ ـ الراية يوم الفتح (٤٩) (٤٢٨٠) من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: لما سار رسول الله ـ ﷺ ـ عام الفتح ـ وفيه فأسلم أبو سفيان: فلما سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند «خطم الجبل» حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبي ـ ﷺ ـ كتيبة كتيبة...

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٢ ـ ٣٤) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثنا الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس قال: فذكره وابن إسحاق وهو محمد بن إسحاق أبو بكر إمام في المغازي ولكنه صدوق وكثير التدليس.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من رواية هشام بن عروة عن أبيه في قصة الفتح، قال فأسلم أبو سفيان. فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين؛ فحبسه العباس، فجعلت الكتائب تمر مع النبي ـ ﷺ ـ كتيبة بعد كتيبة وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

---

(١) قوله «سلاف العسكر» أي متقدموهم. أفاده الصحاح. (ع)

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

قيل: هو واد بالشام كثير النمل، فإن قلت: لم عدّى ﴿أَتَوْا﴾ بعلى؟ قلت: يتوجه على معنيين أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء؛ كما قال أبو الطيب [من الكامل]:

. . . . . وَلَشُدَّ مَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ[1]

لما كان قربا من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم، وقرئ نملة يا أيها النمل، بضم الميم وبضم النون والميم، وكان الأصل: النمل، بوزن الرجل، والنمل الذي عليه الاستعمال: تخفيف /٢/٦٦أ عنه، كقولهم: «السبع» في السبع. قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس[2]، فنادت: يا أيها النمل: الآية، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمها طاخية. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً ـ وهو غلام حدث ـ. فقال: سلوه عن نملة سليمان، أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله، وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة[3]،

---

(١) فلشد ما جاوزت قدرك صاعداً ولشد ما قربت عليك الأنجم

لأبي الطيب المتنبي، طلب منه رجل المدح، فأبى وقال ذلك، واللام للتأكيد، وشد على صورة المبني للمجهول للتعجب، وأصله شدد كحسن. فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم. كما هو قياس بناء التعجب، أي: ما أشد مجاوزتك لقدرك، يعني: كثرت مجاوزتك لمقدارك، حال كونك صاعداً فيما ليس لك من الرفعة، وقال: عليك، دون: إليك؛ لأن قرب الأنجم من جهة العلو، أي: كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق، ثم يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوي ما ينبني على الصعود الحسي، للمبالغة في تشبيه الأول بالثاني، ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذي هو النجوم في الحسن، وعزة الوصول إليه على طريق التصريحية، ففيه شبه التورية.

(٢) قوله «تتكاوس» في الصحاح: كوسته على رأسه تكويساً، أي: قلبته. وكاس هو يكوس: إذا فعل ذلك. وكاس البعير: إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب. (ع)

(٣) قال محمود: «لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، فقال أبو حنيفة ـ وكان شاباً ـ: سلوه عن النملة التي كلمت سليمان، أذكر كانت أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل: كيف لك ذلك؟ قال: لأن الله عز وجل قال ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة» قال أحمد: لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك =

وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو وهي. وقرئ: مسكنكم ولا يحطمنكم، بتخفيف النون، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله: يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل: أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت: لا يحطمنكم ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جواباً للأمر، وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر، والذي جوّز أن يكون بدلاً منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك ههنا، أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ، ونحوه: عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

ومعنى ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ تبسم شارعاً في الضحك وآخذاً فيه، يعني أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روي أن رسول الله ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه (١٠٩٣)، فالغرض المبالغة في وصف ما

١٠٩٣ ـ وردت في هذه الجملة عدة أحاديث منها.

ـ حديث عبد الله بن مسعود:

أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٥١٤) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ سورة الزمر ـ (٤٨١١) ومسلم (٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣) ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ـ حديث رقم (٢٧٨٦).

والترمذي (٥/ ٣٧١) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ تفسير سورة الزمر ـ (٣٢٣٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦) ـ كتاب التفسير ـ باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (١١٤٥٠) وابن أبي عاصم في السنة حديث رقم (٥٤٢)، والآجري في الشريعة ص ٣١٩، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٧٧) من طريق سفيان الثوري، عن منصور وسليمان الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن =

= أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث. ومعناه محتمل، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصيح المستعمل. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحي بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة، فحينئذٍ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ روعي فيه تأنيث اللفظ. وأما المعنى فيحتمل على حد سواء، وإنما أطلت في هذا وإن كان لا يتمشى عليه حكم، لأنه نسبه إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذا الجواب معجبا لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات؛ ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له، فياللعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

وجد منه من الضحك النبوي، وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب،

= عبد الله قال: جاء رجل من اليهود فقال: يا محمد فذكر الحديث وفيه «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه...».

وللحديث طرق أخرى عن عبد الله بن مسعود.

ـ وحديث أبي ذر:

أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨١٢ ـ نووي) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب أوتى أهل الجنة منزلة فيها حديث رقم (٣١٤/ ١٩٠) والترمذي (٤/ ٧١٣) ـ كتاب صفة جهنم (٤٠) ـ حديث رقم (٢٥٩٦)، كلاهما من طريق الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة...» الحديث. فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ـ حديث سلمة بن الأكوع:

أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤١٤ ـ نووي) ـ كتاب الجهاد والسير (٣٢) ـ باب غزوة ذي قرد وغيرها (٤٥) حديث رقم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن أربع عشرة مائة... فذكر الحديث بطوله وفيه ثم قال لي: «يا سلمة أين جحفتك أودرقتك التي أعطيتك قال: قلت: يا رسول الله لقيني عمي عامر عزلا. فأعطيته إياها. قال: فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «اللهم أبغني حبيبا هو أحب إلي من نفسي...».

وفيه أيضاً قال سلمة: قلت: يا رسول الله خلني فانتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم لا يبقى منهم مخبر إلا قتلته قال: «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ...».

والحديث أخرجه أحمد (٤/ ٤٨ ـ ٥١ ـ ٥٢)، وأبو داود (٣/ ٤٩) (٢٦٥٤) مختصراً وليس فيها ذكر الضحك.

ـ وحديث أبو عمرة الأنصاري واسمه ثعلبه بن عمرو بن محصن:

أخرجه أحمد (٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١١٤٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٨ ـ ٦١٩) وعنه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٢١ ـ ١٢٢) والطبراني في معجمه الكبير (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) (٥٧٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) (٢٢١).

كلهم من طرق عن الأوزاعي حدثني المطلب بن حنطب المخزومي قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري حدثني أبي قال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزاة ـ فذكر الحديث وفيه فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه...

وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٤ ـ ٢٥) وزاد نسبته إلى «الأوسط» ـ رجاله ثقات قلت: والمطلب بن حنطب وهو المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي صدوق وهو وإن كان موصوفاً بالتدليس ـ فقد صرح بالتحديث في رواية أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني.

ـ حديث أم أيمن:

أخرجه الحاكم (٦٣١٤ ـ ٦٤) من طريق أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ قالت: قام النبي ـ ﷺ ـ من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها فقمت من الليل وأنا عطش فشربت ما في الفخارة... وفيه «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى =

وقرأ ابن السميفع: ضحكا، فإن قلت: ما أضحكه من قولها؟ قلت: شيئان، إعجابه بما

= بدت نواجذه ثم قال: «أما إنك لا يفجع بطنك بعده أبداً» قلت: وفيه أبو مالك النخعي واسمه عبد الملك بن الحسين ويقال عبادة بن الحسين: قال يحيى بن معين ليس بشيء، وقال عمرو بن علي: ضعيف الحديث منكر الحديث، وقال أبو زرعة وأبو حاتم، ضعيف الحديث وقال البخاري ليس بالقوي عندهم، وقال النسائي ليس بثقة ولا يكتب حديثه راجع تهذيب الكمال (٣٤/٢٤٨ ـ ٢٤٩) ت (٧٥٩٩).

وقال الحافظ في التقريب (٢/٤٦٨) متروك.

ـ حديث عائشة:

أخرجه أبو داود (١/ ٣٠٤) ـ كتاب الصلاة ـ باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٣) والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٢٥) والبيهقي في السنن (٣/٣٤٩) وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) (٩٩١) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٢٨) كلهم من طريق خالد بن نزار حدثني القاسم بن مبرور عن يونس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: شكى الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قحوط المطر... وفيه ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه فقال: «أشهد أن الله على كل شيء قدير» وقال أبو داود: هذا حديث غريب إسناده جيد.

وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قلت: وفي ذلك نظر: فإن خالد بن نزار وشيخه القاسم كذلك لم يخرج لهما الشيخان شيئاً وخالد بن نزار وهو الغساني الأيلي لا يرتقي حديثه إلى الصحة ـ فهو صدوق يخطىء كما في التقريب (١/ ٨٤) ـ فحديثه حسن والله المستعان.

ـ ولها حديث آخر في هذا الباب:

أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ـ كتاب الأدب ـ باب في اللعب بالبنات ـ (٤٩٣٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) ـ كتاب عشرة النساء ـ (٨٩٥٠)، كلاهما من طريق يحيى بن أيوب قال: حدثني عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم بن الحارث حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت: قدم النبي ـ ﷺ ـ من غزوة... وفيه قوله: أوما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة! فضحك حتى رأيت نواجذه. قلت: وفيه عمارة بن غزية وثقه أحمد وأبو زرعة وقال يحيى بن معين صالح. وقال أبو حاتم، ما بحديثه بأس كان صدوقاً، وقال النسائي لا بأس به.

راجع تهذيب الكمال (٢١/ ٢٦٠) ت (٤١٩٥) وقال الحافظ في التقريب لا بأس. قلت: فالحديث حسن إن شاء الله.

قلت: وفي الباب عن زيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، وصهيب وعبد الله بن عباس.

ينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي.

قال الحافظ: وقعت في هذه الجملة عدة أحاديث. منها حديث ابن مسعود: «جاء رجل من اليهود، فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على أصبع الحديث. وفيه فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه متفق عليه، ومنها حديثه مرفوعاً «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ـ الحديث. وفيه: قول الرجل: أتسخر بي وأنت لذلك؟ قال: ولقد رأيت النبي ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضاً. ومنها حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «يؤتى برجل يوم القيامة. فيقال: اعرض عليه صغار ذنوبه ـ الحديث. وفيه: فلقد رأيت النبي ـ ﷺ ـ إلى آخر» =

دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل[1] الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه[2] لزيادة العمل الصالح والتقوى. وحقيقة ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني، حتى لا أنفك شاكراً لك. وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين، خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له، وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك. وروي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ، ثم دعا بالدعوة. ومعنى ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ واجعلني من أهل الجنة.

= أخرجه مسلم. ومنها حديث أبي سعيد ـ رفعه: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ـ الحديث. وفيه: فنظر إلينا رسول الله ـ ﷺ ـ ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه، ومنها حديث جابر: «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب ـ فذكر الحديث وفيه: فقال عمر: لو رأيت بنت خارجة وهي تسألني النفقة فقمت فوجأت عنقها» قال: فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه». أخرجه مسلم.

ومنها حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «كنا مع النبي ـ ﷺ ـ في غزوة فأصاب الناس مخمصة ـ الحديث. وفيه: فلم يبق في الجيش وعاء إلا ملىء وبقي مقله. فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه»، أخرجه ابن حبان والحاكم. ومنها حديث سلمة بن الأكوع: «قدمنا الحديبية ـ الحديث. وفيه قلت: يا رسول الله، خلني أنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم، فلا أبقي منهم أحداً إلا قتلته، فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل. وفيه هذه اللفظة في موضع آخر أخرجه مسلم. ومنها حديث زيد بن أرقم: «أتى علي ـ رضي الله عنه ـ وهو باليمن ـ بثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد ـ الحديث. وفيه: فذكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فضحك حتى بدت نواجذه»، أخرجه أبو داود، وابن حبان، والحاكم. ومنها حديث أم أيمن: «قام رسول الله ـ ﷺ ـ بالليل، فبال في فخارة. فقمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر، فلما أصبح أمرني أن أهريقها فقلت: إني شربتها، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم، ومنها حديث صهيب في أكلة التمر وهو أرمد. فقال: «إنما آكله من شق عيني الصحيحة. قال: فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه. وبعضه لابن ماجه والحاكم. ومنها حديث ابن عباس «كان عبد الله بن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته. فقام إلى جارية له فوقع عليها ـ الحديث. وفيه: الشعر. وقول المرأة: آمنت بالله وكذبت البصر. قال: فغدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله «ما همس به بعض الحكل» في الصحاح «الحكل»: ما لا يسمع له صوت. (ع)

(٢) قوله «وعلى استيفاقه لزيادة العمل» في الصحاح «استوفقت الله»: سألته التوفيق. (ع)

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة: نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره[1]، فوافى الحرم وأقام به ما شاء، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلا؛ فوافى صنعاء وقت الزوال؛ وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغذّى ويصلي فلم يجدوا الماء، وكان الهدهد قناقنه[2]، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسخلونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهداً واقعاً، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء، وذكر له صاحبه ملك بلقيس، وأنّ تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليَّ به، فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته، فناشدها الله وقال: بحق الذي قوّاك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني، فتركته وقالت: ثكلتك أمك، إنّ نبي الله قد حلف ليعذبنك؛ قال: وما استثنى؟ قالت: بلى قال: أو ليأتيني بعذر مبين، فلما قرب من سليمان أرخى / ٢/ ٦٦ب ذنبه وجناحيه يجرّها على الأرض تواضعاً له، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه. فقال: يا نبي الله؛ اذكر وقوفك بين يدي الله: فارتعد سليمان وعفا عنه؛ ثم سأله، تعذيبه: أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه. وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل: أن يلقى للنمل تأكله. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة

---

(١) قوله «تجهز للحج بحشره» في الصحاح: حشرت الناس أحشرهم حشراً: جمعتهم. ومنه: يوم الحشر. (ع)

(٢) قوله «وكان الهدهد قناقنه» القناقن ـ بالضم ـ: الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى. والقنى: جمع قناة. أفاده الصحاح في موضعين. (ع)

الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟ قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع؛ وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة؛ جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ: ليأتينني. وليأتينن. والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقال فيه، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان؟ قلت: لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، وليس في هذا ادّعاء دراية، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحيٌ من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين، فثلث بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ عن دراية وإيقان.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غير زمان بعيد، كقوله: عن قريب، ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، ولبيان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة الله تعالى ﴿أَحَطتُ﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيهاً على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علماً: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ: قرئ بالصرف ومنعه. وقد روي بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية: سبا، بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبأ. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسماً للحيّ أو الأب الأكبر صرف؛ قال [من المنسرح]:

مِنْ سَبَإِ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ ... يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا[1]

(١) يمدح رجلاً بأنه من قبيلة سبأ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم سميت به القبيلة ومأرب: مدينتها. وقيل: قصر لملكهم، وهو مفعول الحاضرين ممنوع من الصرف. وإذ ظرف. ومن دون بمعنى أمام. والعرم: السد العظيم، يحبس السيل عن المدينة. =

وقال [من البسيط]:

أَلْـوَارِدُونَ وَتَـيْـمٌ فِـي ذُرَى سَـبَـإٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ[1]

ثم سميت مدينة مأرب بسبإ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، كما سميت معافر بمعافر بن أدّ. ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق[2] باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعا، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر، لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبإ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

المرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وقد ورث الملك من أربعين ملكاً ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ راجع إلى سبإ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريدت المدينة فمعناه: تملك أهلها. وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين، وسمكه ثمانين. وقيل ثلاثين مكان ثمانين، وكان من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق، فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك

= وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص ١٣٤، وجمهرة اللغة ص ٧٧٣، ١٠٢٢، وسمط اللآلي ص ١٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٤١، ولسان العرب (عرم)، ولأميّة بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥٩، وللنابغة الجعدي أو لأميّة في خزانة الأدب ٩/ ١٣٩، وللأعشى في معجم ما استعجم ص ١١٧٠، وبلا نسبة في الاشتقاق ص ٤٨٩، والإنصاف ٢/ ٥٠٢، وجمهرة اللغة ص ١١٠٧، والكتاب ٣/ ٢٥٣، ولسان العرب (سبأ)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٥٩.

(١) أي الواردون هم: وتيم: اسم قبيلة في أعالي أرض سبأ. والمراد بجلد الجواميس: الحبال المفتولة منه لتغل بها الأسرى في أعناقهم، فشبهت ما يصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية، والعض تخييل، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية، وسبأ ـ في الأصل ـ: لقب رجل من قحطان اسمه عبد شمس، لأنه أول من سبى كان له عشرة أولاد، فذهب ستة إلى اليمن: حمير، وكندة، والأسد، وأشعر، وقشعم، وبجيلة. وذهب أربعة إلى الشام: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان. وبها سميت قبائلهم المشهورة.
البيت لجرير، ينظر ديوانه ص ١٣٠، لسان العرب (ضغبس)، المخصص (١/ ٣١)، (٤/ ٤١)، (١٣/ ٨٦)، (١٥/ ١٨٦)، (١٧/ ٣٠)، البحر المحيط (٧/ ٢٦٩)، الدر المصون (٥/ ٣٠٥).

(٢) قوله «الذي يتعلق» لعله: التي تتعلق. (ع)

سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان / ٢/ ٦٧أ، فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء، كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم. ومن نوكى القصاص[1] من يقف على قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ ثم يبتدىء ﴿عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا﴾ يريد: أمر عظيم، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس. فرّ من استعظام الهدهد عرشها، فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله. فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كأنه سوّى بينهما؟ قلت: بينهما فرق بين؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله، وهو تعليم منطق الطير، فرجع أوّلاً إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد. فإن قلت: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة، وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قلت: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

فإن قلت: من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قلت: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان، خصوصاً في زمن نبيّ سخرت له الطيور وعلم منطقها، وجعل ذلك معجزة له. من قرأ بالتشديد أراد: فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة، ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. ومن قرأ بالتخفيف، فهو ألا يسجدوا. ألا للتنبيه، ويا حرف النداء. ومناداه محذوف؛ كما حذفه من قال: [الطويل]

أَلاَ يَا اسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَى الْبِلَىٰ . . . . . .[2]

---

(١) قوله «ومن نوكي القصاص» النوكي: جمع أنوك، وهو الأحمق. (ع)

(٢) ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر =

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش: هلا، وهلا: بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد الله: هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفي قراءة أبيّ: ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون وسمي المخبوء بالمصدر: وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه. وقرئ: الخب، على تخفيف الهمزة بالحذف. والخبا، على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. ووجهها: أن تخرج على لغة من يقول في الوقف: هذا الخبو، رأيت الخبا، ومررت بالخبى. ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، لا على لغة من يقول: الكمأة والحمأة؛ لأنها ضعيفة مسترذلة. وقرئ: يخفون ويعلنون، بالياء والتاء. وقيل: من أحطت إلى العظيم[1]: هو كلام الهدهد. وقيل: كلام رب العزة. وفي إخراج الخبء: أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم في روائه[2] ومنطقه وشمائله، ولهذا ورد: ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله. فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأنّ مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة، وإنما اختلفا في سجدة ص: فهي عند أبي حنيفة سجدة

= لذي الرمة. وألا استفتاحية للتنبيه، فلا معنى ليا إلا النداء. والمنادى بها محذوف، تقديره: يا دار مي اسلمي. فاستغنى عنه بما بعده؛ وحذفه اهتماماً بطلب السلامة لها. وفي تكرير ندائها: نوع تفجع. ومي: مرخم مية. وترخيم المضاف إليه: ضرورة حسنها سبق النداء. وعلى: بمعنى مع، أي: اسلمي ولو كنت بالية، لأنه إن لم تبق الدار كفتني الآثار. ومنهلا: منصباً. والجرعاء: مؤنث الأجراع، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر: المطر، يدعو لها بالخصب.
ينظر: ديوانه ص ٥٥٩، والإنصاف ١/ ١٠٠، وتخليص الشواهد ص ٢٣١، ٢٣٢، والخصائص ٢/ ٢٧٨، والدرر ٢/ ٤٤، ٤/ ٦١، وشرح التصريح ١/ ١٨٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦١٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٣٢، واللامات ص ٣٧، ولسان العرب (يا)، ومجالس ثعلب ١/ ٤٢، والمقاصد النحوية ٢/ ٦، ٤/ ٢٨٥، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/ ٢٣٥، وجواهر الأدب ص ٢٩٠، والدرر ٥/ ١١٧، وشرح الأشموني ١/ ١٧٨، وشرح ابن عقيل ص ١٣٦، وشرح عمدة الحافظ ص ١٩٩، وشرح قطر الندى ص ١٢٨، ولسان العرب (ألا)، ومغني اللبيب ١/ ٢٤٣، ١/ ١١١، ٢/ ٤، ٧٠.

(١) قوله «وقيل من أحطت إلى العظيم» في اللباب: أن الخلاف في: ألا يسجدوا ـ إلى ـ العظيم، ومال إليه في التقريب اهـ. من هامش. (ع)

(٢) قوله «في رواته» بالضم، أي: منظره. أفاده الصحاح. (ع)

تلاوة. وعند الشافعي: سجدة شكر. وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد، فغير مرجوع إليه. فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت: نعم إذا خفف وقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ثم ابتدأ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾، وإن شاء وقف على ﴿ألا يا﴾ ثم ابتدأ ﴿يَسْجُدُوا﴾ وإذا شدّد لم يقف إلا على ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾. فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأنّ وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وقرئ: العظيم، بالرفع.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أبلغ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب / ٢/ ٦٧ب فيم أخبر به فلم يوثق به[1]، ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه، ليكون ما يقولونه بمسمع منك. و﴿يَرْجِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فيقال: دخل عليها من كوّة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوّة. فإن قلت: لم قال: فألقه إليهم، على لفظ الجمع؟ قلت: لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس، فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، اهتماما منه بأمر الدين، واشتغالاً به عن غيره. وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو وصفته بالكرم، لأنه من عند ملك كريم أو مختوم. قال ﷺ: «كرم الكتاب ختمه» (١٠٩٤)، وكان ﷺ يكتب إلى العجم، فقيل له:

١٠٩٤ أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٣٩) من طريق محمد بن مروان السدي ثنا محمد بن =

---

(١) قال محمود: «معناه أصدقت أم كذبت، إلا أن عبارة الآية أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفاً بالكذب اتهم في جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد: وهذا مما نبهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو: أم كذبت، وعن مجرد صفته في قوله: أم كنت كاذباً، إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد. والله أعلم.

إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم، فاصطنع خاتماً (١٠٩٥). وعن ابن المقفع: من كتب

= السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مرفوعاً.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٦): قال ابن طاهر في كلامه على أحاديث الشهاب: هذا التخليط وقع فيه من جهة محمد بن مروان فإنه مرة عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ومرة رواه عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومحمد بن مروان يعرف بالسدي الصغير متروك الحديث والكلبي مثله اهـ.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٥١٩) رقم (٣٨٨٤) والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٧٦ ـ بتحقيقنا) من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي قال: ثنا محمد بن مروان السدي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن ابن جريج إلا محمد بن مروان تفرد به يحيى بن طلحة.

قلت: لم ينفرد به يحيى بن طلحة بل تابعه صالح بن محمد عند الثعلبي في «تفسيره» كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٦).

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك الحديث .اهـ.

تنبيه: وقع في الإسناد عن الطبراني في الأوسط يحيى بن أبي طلحة اليربوعي وهو خطأ صوابه يحيى بن طلحة اليربوعي ينظر تهذيب التهذيب (١١/ ٢٣٣).

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان وهو السدي الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب».

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان وهو السدي الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب. انتهى.

١٠٩٥ ـ أخرجه البخاري (١/ ١٨٧) كتاب العلم: باب ما يذكر في المناولة حديث (٦٥) وفي (٦/ ١٢٧) كتاب الجهاد والسير: باب دعوة اليهود والنصارى حديث (٢٩٣٨) وفي (١٠/ ٣٣٦): كتاب اللباس: باب نقش الخاتم حديث (٥٨٧٢)، وباب اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء حديث (٥٨٧٥) وفي (١٣/ ١٥٠) كتاب الأحكام: باب الشهادة على الخط المختوم حديث (٧١٦٢) ومسلم (٣/ ١٦٥٧) كتاب اللباس والزينة باب في اتخاذ النبي ـ ﷺ ـ خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم حديث (٥٦/ ٢٠٩٢) وأبو داود (٤/ ٨٨) كتاب الخاتم: باب ما جاء في اتخاذ الخاتم حديث (٤٢١٤) والترمذي (٥/ ٦٩ ـ ٧٠) كتاب الاستئذان: باب ما جاء في ختم الكتاب حديث (٢٧١٨) وفي «الشمائل المحمدية» رقم (٩٣) والنسائي (٨/ ١٧٤) كتاب الزينة: باب صفة خاتم النبي ـ ﷺ ـ، وفي «التفسير» رقم (٥٣٢) وأحمد (٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١٨١ ـ ٢٢٣ ـ ٢٧٥) وأبو يعلى (٣٠٠٩ ـ ٣٠٧٥ ـ ٣١٥٤ ـ ٣٢٧١ ـ ٣٢٧٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٦٤) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ـ ﷺ ـ (ص ١٣١) والبيهقي (١٠/ ١٢٨) كتاب آداب القاضي: باب ختم الكتاب، كلهم من طريق قتادة عن أنس.

وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال: أراد أن يكتب... فذكره.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال: أراد أن يكتب... فذكره. انتهى.

إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به. وقيل: مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم: هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها، كأنها لما قالت: إني ألقي إليّ كتاب كريم، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه: كيت وكيت. وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه. عطفاً على: إني. وقرئ: أنه من سليمان وأنه، بالفتح على أنه بدل من كتاب، كأنه قيل: ألقي إليّ أنه من سليمان. ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان، وتصديره باسم الله. وقرأ أبيّ: أنْ من سليمان وأنْ بسم الله، على أن المفسرة. وأن في ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ مفسرة أيضاً. لا تعلوا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك. وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بالغين معجمة من الغلو: وهو مجاوزة الحدّ. يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه، فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية. وقيل: نقرها فانتبهت فزعة. وقيل: أتاها والقادة والجنود حواليها، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري؛ فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، وقالت لقومها ما قالت: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين أو مؤمنين.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

الفتوى: الجواب في الحادثة، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن. والمراد بالفتوى ههنا: الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم: استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة. وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قاضية أي لا أبت أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: كل واحد على عشرة آلاف.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي هو موكول إليك، ونحن مطيعون لك، فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال. أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، وأنت ذات الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين: نتبع رأيك.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة، رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن، ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه بـ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عنوة وقهرا ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي خرّبوها ـ ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة ـ، وأذلوا أعزتها، وأهانوا أشرافها: وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراماً فقد كفر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين ﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أي مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك، روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهنّ الأساور والأطواق. والقرطة[1] / ٢/ ٦٨أ راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك[2] في زي الغلمان. وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درّة عذراء، وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرّة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك غضبان فهو ملك؛ فلا يهولنك، وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبيّ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجنّ فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسيّ من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ. والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا: بهتوا، ورأوا الدواب

---

(١) قوله «والقرطة» واحدها: قرط. (ع)

(٢) قوله «على رماك» هي إناث الخيل. (ع)

تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ وقال: أبن الحقّ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها، فجعل رزقها في الشجرة. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبيّ وما لنا به طاقة، فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل ألوف، وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فلما جاءوا. ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالإدغام، كقوله: ﴿أَتُحَآجُّوٓنِّي﴾ وبنون واحدة: أتمدوني. الهدية: اسم المهدَى؛ كما أن العطية اسم المعطَى، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه، تقول هذه هدية فلان، تريد: هي التي أهداها أو أهديت إليه، والمضاف إليه ههنا هو المهدى إليه. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به ﴿بَلْ أَنتُم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا؛ فلذلك ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بما تزادون ويهدى إليكم، لأن ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم؛ وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية. فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلته بالواو، فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء، فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت، فإني غني عنه. وعليه ورد قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾. فإن قلت: فما وجه الإضراب؟ قلت: لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه: وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح؛ إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي، ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها. ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ، كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱرْجِعْ﴾ خطاب للرسول. وقيل: للهدهد محملاً كتاباً آخر ﴿لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة. وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة، أي: لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله

عنه ـ: لا قبل لهم بهم. الضمير في منها لسبأ. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها. وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها. وعن قتادة: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحلّ له أخذ مالها. وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره؟ اختبارا لعقلها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ ٢/ ٦٨ب مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقرئ: عفرية. والعفر. والعفريت. والعفرية، والعفراة، والعفارية من الرجال: الخبيث المنكر، الذي يعفر أقرانه. ومن الشياطين: الخبيث المارد. وقالوا: كان اسمه ذكوان ﴿لَقَوِىٌّ﴾ على حمله ﴿أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئا ولا أبدله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رجل كان عنده اسم الله الأعظم، وهو يا حي يا قيوم، وقيل: يا إلٰهنا وإلٰه كل شيء إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا أنت. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: الله. والرحمن. وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام، وكان صدّيقاً عالماً. وقيل: اسمه أسطوم. وقيل: هو جبريل. وقيل: ملك أيد الله به سليمان. وقيل: هو سليمان نفسه، كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول. وعن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام: علم من الكتاب: من الكتاب المنزل، وهو علم الوحي والشرائع. وقيل: هو اللوح. والذي عنده علم منه: جبريل عليه السلام. وآتيك ـ في الموضعين ـ يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريكك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال

الطرف في نحو قوله [من الطويل]:

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ[1]

وصف بردّ الطرف، ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك: ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب، ثم نبغ[2] عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله، قبل أن يردّ طرفه. ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدّة المجيء به، كما تقول لصاحبك: افعل كذا في لحظة، وفي ردّة طرف، والتفت ترني، وما أشبه ذلك: تريد السرعة. ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد. وقيل: الشكر، قيد للنعمة الموجودة. وصيد للنعمة المفقودة. وفي كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار، وقلما أقشعت[3] ناقرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر، واستدم راهنها بكرم الجوار، واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا ﴿غَنِىٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكراً لربه، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر، كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
لأعرابية، نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها، كأنه يراودها عن نفسها، فأجابته بذلك وقيل: هو لشاعر حماسي. وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب، على طريق التصريحية، ورائداً ترشيح، لأنه يلائم الإرسال. ويوماً: ظرف له. والمناظر: مواقع النظر، واستدل على إتعابها إياه بقوله: رأيت الذي لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه، فكانت عينك سبباً لوقوع قلبك في حيرة الهوى وحرقة الجوى.
ينظر: عيون الأخبار (٤/ ٢٢)، البحر المحيط (٧/ ٧٧)، الدر المصون (٥/ ٣١٥).

(٢) قوله «ثم نبغ عند مجلس سليمان» في الصحاح «نبغ الشيء» ظهر. (ع)

(٣) قوله «وقلما أقشعت» أي: أقلعت. أفاده الصحاح. (ع)

﴿نَكِّرُوا۟﴾ اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه. قالوا: وسعوه وجعلوا مقدّمه مؤخره، وأعلاه أسفله. وقرئ: ننظر، بالجزم على الجواب، وبالرفع على الاستئناف ﴿أَنَهْتَدِى﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه، أو للدين والإيمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة، من تقدّم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس. هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة. لم يقل: أهذا عرشك، ولكن: أمثل هذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تقل: هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقع في المحتمل[1] ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ من كلام سليمان وملئه: فإن قلت: علام عطف هذا الكلام، وبم اتصل؟ قلت: لما كان المقام ـ الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به ـ مقاماً أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو: قد أصابت في جوابها وطبقت المفصل[2]، وهي عاقلة لبيبة، وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها ـ عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة؛ ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والمعنى: وأوتينا / ٢/ ٦٩أ العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، تعني: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء

---

(١) قال محمود: «لم يقل أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقينا، قالت: كأنه هو ولم تقل هو هو، ولا ليس بهو وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل» قال أحمد: وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال، بأن تقول: هكذا هو. نكتة حسنة. ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه؛ إذ كاف التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر. وكلاهما ـ أعني اسم الإشارة والمضمر ـ واقع على الذات المشبهة، وحينئذٍ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال، فلا بد في اختيار (كأنه هو) من حكمة فنقول: حكمته والله أعلم: أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو.، وتلك حال بلقيس. وأما هكذا هو؛ فعبارة جازم بتغاير الأمرين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو، إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) قوله «وطبقت المفصل» لعله: وطابقت. (ع)

السبيل. وقيل: وصدها الله ـ أو سليمان ـ عما كانت تعبد[1] بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: أنها، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد. أو بمعنى لأنها.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

الصرح: القصر. ونيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: سأقيها، بالهمزة. ووجهه أنه سمع: سؤقا، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس، وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحققاً لنبوته، وثباتاً على الدين. وزعموا أنّ الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم، لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة: أمر بها الشياطين فاتخذوها، واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان[2]، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له. وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان، وسلطه على اليمن، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تريد بكفرها فيما تقدم، وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ من حيث أن حذف الجار ضرورة كقوله: تمرون الديار فلم تعوجوا... انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «فبنوا لها سيلحين وغمدان» في الصحاح «سيلحون»: قرية. وفيه في فصل «نصب»: أن للعرب في نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وباسمين وقنسرين: مذهبين، أحدهما: لزوم الياء وإعراب ما لا ينصرف. والثاني: إعراب الجمع بالياء والنون نصباً وجراً، وبالواو والنون رفعاً. وفي فصل «غمد»: غمدان: قصر باليمن. وفي فصل «صنع» المصانع: الحصون. (ع)

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقرئ: أن اعبدوا، بالضم على إتباع النون الباء ﴿فَرِيقَانِ﴾ فريق مؤمن وفريق كافر. وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يقول كل فريق: الحق معي. السيئة: العقوبة، والحسنة: التوبة، فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه، تبنا حينئذٍ واستغفرنا ـ مقدّرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت ـ. وإن لم تقع، فنحن على ما نحن عليه، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم، ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه: وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وكان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره، فإن مر سانحاً[1] تيمن، وإن مر بارحاً تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر، استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته: أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة. ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك، أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن، فلما قالوا: أطيرنا بكم، أي: تشاءمنا وكانوا قد قحطوا ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سببكم الذي بجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل. عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. وقرئ: تطيرنا بكم، على الأصل. ومعنى: تطير به: تشاءم به. وتطير منه: نفر منه ﴿تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون. أو تعذبون. أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ

(١) قوله «فإن مرّ سانحاً تيمن... إلخ» السانح: ما ولاك ميامنه من ظبي أو طائر أو غيرهما، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك، والبارح: ما ولاك مياسره بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك، كذا في الصحاح. (ع)

أَنَّ دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة، فكأنه قيل: تسعة أنفس. والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة. والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب: الهذيل بن عبد رب. غنم بن غنم. رباب بن مهرج. مصدع بن مهرج. عمير بن كردبة. عاصم بن مخرمة. سبيط بن صدقة. سمعان بن صفي. قدار بن سالف: وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة / ٢/ ٦٩ب قوم صالح عليه السلام، وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد[1]، أي: قالوا متقاسمين: وقرئ: تقسموا. وقرئ: لتبيتنه، بالتاء والياء والنون، فتقاسموا ـ مع النون والتاء ـ يصح فيه الوجهان. ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً. والتقاسم، والتقسم: كالتظاهر، والتظهر: التحالف. والبيات: مباغتة العدو ليلاً[2]. وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك[3] استراق الظفر، وقرئ:

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أمّا قوله وخبراً فلا يصح لأنَّ الخبر أَحَدُ قِسْمَي الكلام لأنه ينقسم إلى الخبر والإنشاء وجميع معانيه إذا حققت راجعة إلى هذين القسمين قُلْتُ: ولا أدري عدم الصحة مِمّاذا؟ لأنه جعل الماضي خبراً لاحتماله الصدق والكذب مقابلاً للأمر الذي لا يحتملها أما كون الكلام لا ينقسم إلاّ إلى خبر وإنشاء وأنَّ معانيه إذا حققت ترجع إليهما فأي مدخل لهذا في الرد على أبي القاسم؟
قال الشيخ: والتقييد بالحال ليس إلاّ من باب نسبة التقييد لاَ مِنْ نِسْبَتِهِ الكلام التي هي الإسناد فإذا أُطْلِقَ عليها الخبر كان ذلك على تقدير أنها لو لم تكن حالاً لجاز أن تستعمل خبراً وكذلك قولهم في الجملة الواقعة صلة هي خبرية فهو مَجَازٌ والمعنى أنها لو لم تكن صلة لجاز أن تستعمل خبراً وهذا فيه غموض. قُلْتُ: مُسَلَّمٌ أنَّ الجملة ما دامت حالاً أَوْ صِلَةً لا يقال إنها خبرية بمعنى أنها تَسْتَقِلُّ بإفادة الإسناد لأنها سيقت مَسَاقَ القَيْدِ في الحال ومَسَاقَ حدٌ كَلِمَةٍ في الصلة وكان ينبغي أن يذكر أيضاً وكان ينبغي أن الجملة الواقعة صفة فإن الحكم كذلك. ثم قال: وأما إضْمَار قد فلا يُحْتَاجُ إليه لكثرة وقوع الماضي حالاً دون قد كثرة ينبغي القياس عليها قُلْتُ: الزمخشري مَشَى مع الجمهور فإن مذهبهم إنَّه لا بُدَّ مِنْ قد ظاهرةٌ مضمرة لتقرُبهُ من الحال، وقرأ ابن أبي لَيْلَى «تَقَسَّمُوا» دون ألف مع تشديد السين والتَّقَاسُمُ والتَّقَسُّمُ كالتَّظَاهُرِ والتَّظَهُّرِ. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «والبيات مباغتة العدو ليلاً» في الصحاح «بيت العدو» أي: أوقع بهم ليلاً، والاسم: البيات. (ع)

(٣) قوله «ليس من آيين الملوك» تقدم آنفاً أنه قيل: آيين الملك: مراتبه وبهاؤه، كما وجد بهامش. (ع)

مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك. ومهلك بضم الميم من أهلك. ويحتمل المصدر والزمان والمكان، فإن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه[1]؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله؛ فذكروا أحدهما: كانوا صادقين، لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب[2]. مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله صخرة من الهضب[3] حيالهم، فبادروا، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قلت: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أمله وجمعوا بين البياتين جميعاً لا أحدهما كانوا صادقين، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم، ألا تراهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب، قال أحمد: وحيلة الزمخشري لتصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل أقرب من حيلتهم التي سماها الله تعالى مكراً؛ لأن غرضه من تمهيد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة في موافقة قوم لوط عليها، إذ استقبحوا الكذب بعقولهم لا بالشرع. وأنى يتم له ذلك أو لهم، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ وذلك أنهم فعلوا الأمرين، ومن فعل الأمرين فجحد فعل أحدهما لم يكن في فريته مرية، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمراً فادعى عليهم فعل أمرين، فجحدوا المجموع. ومن ثم لم تختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيداً، فضرب زيداً وعمراً: كان حانثاً، بخلاف الحالف لا أضرب زيداً وعمرا فضرب عمراً، ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما، فإن مثل هذا محل خلاف العلماء في الحنث وعدمه، فإذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحاً في قولهم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ وأنه لا حيلة لهم في الخلاص من الكذب، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطؤون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة، مع القطع بأنها ليست حيلة، ولا شبهة لقرب جحدهم من الصدق، فيبطل ما قال الزمخشري لإثبات قاعدة دينه على زعمه، إذ قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها، فحسبه ما رضي به لدينه، والسلام.

(٢) قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» في الصحاح «فصا الإنسان»: إذا تخلص من البلية والضيق، وتفصيت من الديون: إذا خرجت منها وتخلصت. (ع)

(٣) قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أي من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة، وقعد حياله: أي إزاءه. وأصله الواو، أفاده الصحاح. (ع)

بقومهم، وعذب الله كلاً منهم في مكانه، ونجى صالحا ومن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة: يرون الحجارة ولا يرون رامياً ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ استئناف. ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي تدميرهم. أو نصبه على معنى: لأنا، أو على أنه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار ﴿خَاوِيَةً﴾ حال عمل فيها ما دل عليه تلك. وقرأ عيسى بن عمر: خاوية، بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَلُوطًا﴾ أو أرسلنا لوطاً لدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ عليه. ﴿إِذْ﴾ بدل على الأول ظرف على الثاني ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من بصر القلب، أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادّة لله في حكمته وحكمه، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة. وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه عباده؛ لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين. أو تبصرونها بعضكم من بعض، لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها، لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة، وانهماكاً في المعصية، وكأن أبا نواس بنَىٰ علَىٰ مذهبهم قوله [من الطويل]:

وَبُحْ بِٱسْمِ مَا تَأْتِي وَذَرْنِي مِنَ الْكُنَىٰ ... فَلاَ خَيْرَ فِي اللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ[1]

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم. فإن قلت: فسرت تبصرون بالعلم وبعده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء؟ قلت: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك. أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل: السفاهة والمجانة التي كانوا عليها فإن قلت: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة لقوم، والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء؟ وكذلك بل أنتم قوم تفتنون؟ قلت:

---

(١) ألا فاسقني خمرًا وقل لي: هي الخمر ... ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى وذرني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

لأبي نواس. وألا استفتاحية للتنبيه، فكأنه قال: تنبه فاسقني. وقل لي هي الخمر: أي اجهر باسمها. وقوله: إذا أمكن الجهر: احترس ـ وباح الشيء: ظهر. وباح به أظهره، أي: أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر. ويروى وبح باسم ما تأتي، أي: ما تفعل. ودعني: أي اتركني: ضمنه معنى باعدني فعداه بمن، كناية عن نهيه عن ذكر الكنى: جمع كنية: وهو ما دل على الشيء دلالة خفية، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحاً.

اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة، لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وقرأ الأعمش: جواب قومه، بالرفع. والمشهورة أحسن ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن القاذورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر، ويغيظنا إنكارهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو استهزاء ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ قدّرنا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ٢/ ٧٠أ كقوله: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عزّ وجل وصلوا على رسول الله ـ ﷺ ـ أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم. معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت[1] وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة، فقيل لهم، مع العلم بأنه

---

(١) قال محمود: «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع (خالق كل شيء) مكان قوله (خالق كل خير) فإنه تخصيص قدري: أو إشراك خفي. والتوحيد الأبلج: ما قلناه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً، لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته، ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، كما عدّدها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء. وقرئ: يشركون بالياء والتاء. وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه كان إذا قرأها يقول: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم» (١٠٩٦).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في ﴿أم تشركون﴾ و﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾؟ قلت: تلك متصلة؛ لأنّ المعنى: أيهما خير. وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة، لما قال الله تعالى: آلله خير أم الآلهة؟ قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء. وقرأ الأعمش: أمَن، بالتخفيف. ووجهه أن يجعل بدلاً من الله، كأنه قال: أمّن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون؟ فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهتجها بماء واحد. لا يقدر عليه إلا هو وحده. ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد أن تأتي ذلك محال من غيره، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بعد الخطاب: أبلغ في تخطئة رأيهم. والحديقة: البستان عليه حائط: من الإحداق وهو

١٠٩٦ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣) رقم (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن الحسين يذكر... فذكر الحديث بطوله.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد وأخرجه البيهقي في «الشعب» في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن الحسين يذكر أن النبي ـ ﷺ ـ إذا ختم القرآن ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: «كان علي بن الحسين يذكر أن النبي ـ ﷺ ـ إذا ختم القرآن ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون. انتهى.

الإحاطة. وقيل: ﴿ذَاتَ﴾؛ لأنّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة، كما يقال: النساء ذهبت. والبهجة: الحسن، لأنّ الناظر يبتهج به ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له. وقرئ: أإلٰهاً مع الله، بمعنى: أتدعون، أو أتشركون. ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة، وتخرج الثانية بين بين ﴿يَعْدِلُونَ﴾ به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ وما بعده بدل من (أمّن خلق) فكان حكمهما حكم ﴿قَرَارًا﴾ دحاها وسوّاها بالاستقرار عليها ﴿حَاجِزًا﴾ كقوله: برزخاً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجأ. والاضطرار: افتعال منها. يقال: اضطرّه إلى كذا. والفاعل والمفعول: مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو المجهود. وعن السدّي: الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: المذنب إذا استغفر. فإن قلت: قد عم المضطرين بقوله: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطرّ يدعوه لا يجاب[1]؟ قلت: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة. وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً، يصلح لكله ولبعضه، فلا طريق إلى الجزم على/ ٢/ ٧٠ب أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة، فبطل التناول على العموم ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها، وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. وقرئ: يذكرون، بالياء مع الإدغام. وبالتاء مع الإدغام والحذف. وما مزيدة، أي: يذكرون تذكراً قليلاً. والمعنى:

(١) قال محمود: «إن قلت فكم من مضطر لا يجاب؟ قلت: الإجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة» قال أحمد: الصواب أن الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرية، لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة: فاسد: فإن المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً، ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت.

نفي التذكر، والقلة تستعمل في معنى النفي.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ بالنجوم في السماء، والعلامات في الأرض: إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ قلت: قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الماء ﴿و﴾ من ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ مع الله إلهاً، فأين دليلكم عليه؟

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قلت: جاء على لغة بني تميم، حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار، يريدون: ما فيها إلا حمار، كأنّ أحداً لم يذكر؛ ومنه قوله [من الطويل]:

عَشِيَّةَ مَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا ... وَلاَ النَّبْلُ إِلاَّ الْمَشْرَفِيُّ الْمُصَمِّمُ[1]

وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه. فإن قلت: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟ قلت: دعت إليه نكتة سَرية[2]. حيث أخرج

---

(١) النبل: السهام العربية. والمشرفي: السيف، نسبة لمشارف اليمن. والمصمم: الماضي النافذ لصلابته، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهام عند التباعد، فإذا تقاربوا تحاربوا بالرماح، فإذا التقوا تضاربوا بالسيوف. وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو، فكأن النبل يغني عن غيره، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفين. وضمير مكانها للحرب أو للسيوف، والاستثناء منقطع بعد النفي، ويجب نصبه عند الحجازيين. ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين: إما على البدل، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور، وأن العامل مفرغ لما بعد «إلا».
البيت لضرار بن الأزور ينظر تذكرة النحاة ص ٣٣٠، وخزانة الأدب ٣/ ٣١٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٢٨، والمقاصد النحوية ٣/ ٩، وللحصين بن الحمام برواية (المصمما) مكان (المصممُ) في شرح اختيارات المفضل ١/ ٣٢٩، ينظر شرح الأشموني ١/ ٢٢٩، والدر المصون ٢/ ٤٥٢.

(٢) قوله «دعت إليه نكتة سرية» لعله بزنة فعلية، فيكون بمعنى شريفة. (ع)

المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير، بعد قوله: ليس بها أنيس، ليؤول المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض، فهم يعلمون الغيب، يعني: أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم، كما أنّ معنى ما في البيت[1]: إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس، بتا للقول بخلوّها عن الأنيس. فإن قلت: هلا زعمت أنّ الله ممن في السموات والأرض، كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان، على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها، فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم؟ قلت: يأبى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز، وكونهم فيهن حقيقة، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير صحيحة، على أنّ قولك: من في السموات والأرض.، وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد: فيه إيهام تسوية، والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى. ألا ترى كيف قال ﷺ لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: «بئس خطيب القوم أنت» (١٠٩٧) وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية (١٠٩٨)، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً؛ لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ عن وقت الساعة ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى، ولو سمي به: لكان فعالاً، من آن يئين ولانصرف. وقرئ: إيان، بكسر الهمزة.

١٠٩٧ ـ أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث (٤٨/ ٨٧٠) وأبو داود (١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦) كتاب الصلاة: باب الرجل يخطب على قوس حديث (١٠٩٩)، (٢/ ٧١٤) كتاب الأدب حديث (٤٩٨١) والنسائي (٦/ ٩٠) كتاب النكاح: باب ما يكره من الخطبة، وأحمد (٤/ ٢٥٦ ـ ٣٧٩) والحاكم (١/ ٢٨٩) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ٢٩٦) وابن حبان (٧/ ٣٧) رقم (٢٧٩٨) من طريق عبد العزيز بن رفيع عن تميم بن طرفة عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ـ ﷺ ـ فقال: من يطع الله ورسوله قد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال النبي ـ ﷺ ـ بئس الخطيب قل: ومن يعصي الله ورسوله.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم. انتهى.

١٠٩٨ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٣٦١) كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين حديث (٣٢٣٤) ومسلم (٢/ ٨ ـ نووي) كتاب الإيمان: باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾... حديث (٢٨٧/ ١٧٧) والترمذي (٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنعام حديث (٣٠٦٨) من طريق مسروق عن عائشة.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديثها في أثناء حديث. انتهى.

---

(١) قوله: «معنى ما في البيت» هو قول الشاعر [من الرجز]:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

(ع)

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقرئ: بل أدّرك. بل ادّراك. بل ادّارك. بل تدارك. بل أأدرك، بهمزتين. بل آأدرك، بألف بينهما. بل ادرك، بالتخفيف والنقل. بل ادّرك، بفتح اللام وتشديد الدال. وأصله: بل أدّرك؟ على الاستفهام. بلى أدرك. بلى أأدرك. أم تدارك. أم أدرك؛ فهذه ثنتا عشرة قراءة. وادّارك: أصله تدارك، فأدغمت التاء في الدال. وادّرك: افتعل. ومعنى أدرك علمهم: انتهى وتكامل. وادّرك: تتابع واستحكم. وهو على وجهين، أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه، قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته، وهم شاكون جاهلون، وهو قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: يريد المشركين ممن في السموات والأرض؛ لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع، كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قلت: إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به، فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ قلت: لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب، ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه، وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم: وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون ـ وهو وقت جزاء أعمالهم ـ: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم ٢/ ٧١أ، كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزؤ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته: وفي: أدرك علمهم، وادارك علمهم: وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى، من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تعدم: وقد فسره الحسن ـ رضي الله عنه ـ باضمحل علمهم وتدارك، من تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: بل أأدرك على الاستفهام؟ قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: أم أدرك. وأم تدارك؛ لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة. فإن قلت: فمن قرأ: بلى أدرك، وبلى أأدرك؟ قلت: لما جاء ببلى، بعد قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كان معناه: بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون. وأما من قرأ: بلى أأدرك؟ على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم

بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها؛ لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ في شأن الآخرة ومعناها فإن قلت؛ هذه الاضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً. ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدّاه بمن دون عن؛ لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

العامل في ﴿إِذَآ﴾ ما دلّ عليه ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو نخرج؛ لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل[1] فيه عقاباً وهي همزة الاستفهام، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية، فكيف إذا اجتمعن؟ والمراد: الإخراج من الأرض. أو من حال الفناء إلى الحياة، وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على «إذا» و«إن» جميعاً إنكار على إنكار، وجحود عقيب جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والضمير في (إنا) لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم. فإن قلت: قدّم في هذه الآية ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي آية أخرى قدّم ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على ﴿هَٰذَا﴾؟ قلت: التقديم دليل على أن المقدّم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سبق لأجله، ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة؛ لأنّ تأنيثها غير حقيقي؛ ولأنّ المعنى: كيف

---

(١) قوله «اسم الفاعل فيه عقاباً» لعله اسم المفعول وعقاباً جمع عقبة. أفاده الصحاح. وعبارة النسفي: لأن اسم الفاعل والمفعول ـ بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن. (ع)

كان آخر أمرهم؟ وأراد بالمجرمين: الكافرين، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفاً للمسلمين في ترك الجرائم وتخوّف عاقبتها، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم لم يتبعوك، ولم يُسلموا فيَسلموا وهم قومه قريش، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾. ﴿فِى ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك، ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً، بالفتح والكسر. وقد قرئ بهما. والضيق أيضاً: تخفيف الضيق. قال الله تعالى ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرئ مخففاً ومثقلاً ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكم وأزف لكم، ومعناه: وتبعكم ولحقكم، وقد عدى بمن قال [من الطويل]:

فَلَمَّا رَدِفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ تَوَلَّوْا سِرَاعاً وَالْمَنِيَّةُ تُغْنِقُ[1]

يعني: دنونا من عمير، وقرأ الأعرج: ردف لكم، بوزن ذهب، وهما لغتان، والكسر أفصح. وعسى ولعل وسوف ـ في وعد الملوك ووعيدهم ـ يدل على صدق الأمر وجدّه وما لا مجال للشكّ بعده/ ٢/ ٧١ب، وإنما يعنون بذلك: إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم؛ فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

الفضل والفاضلة: الإفضال. ولفلان فواضل في قومه وفضول. ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة، وأنه لا يعاجلهم بها، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا

---

(١) ردف كتبع يتعدى بنفسه، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن، وأعنق الفرس: سار سيراً سريعاً سهلاً. والعنق: اسم منه يقول: فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا. شبه المنية بالأسد على طريق المكنية، فأثبت لها العنق تخييلاً، كأنهم كانوا تبعوهم برمي النبال. ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح، أي: ونحن نسرع خلفهم، فذكر العنق تجريد؛ لأنه يلائم المشبه.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٥)، الدر المصون (٥/ ٣٢٦).

يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب: وهم قريش.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قرئ تكنّ. يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته وأخفيته، يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ ومكايدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة وخافية، فكانت التاء فيهما بمنزلتهما في العافية والعاقبة ونظائرهما: النطيحة، والرمية، والذبيحة: في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة، كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح. المبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا، يريد؛ اليهود والنصارى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم وآمن، أي: من بني إسرائيل. أو منهم ومن غيرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت: ما معنى يقضي بحكمه؟ ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قلت: معناه بما يحكم به وهو عدله، لأنه لا يقضي إلا بالعدل، فسمي المحكوم به حكماً. أو أراد بحكمته ـ وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه ـ: جمع حكمة. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه، أو العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم

أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته. وأن مثله لا يخذل. فإن قلت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يغيظ رسول الله ـ ﷺ ـ من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله ـ فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع ـ: كانت حالهم ـ لانتفاء جدوى السماع ـ: كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع؛ وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته. وقرئ: ولا يسمع الصمّ، وما أنت بهادِ العمي، على الأصل. وتهدي العمي. وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمى، وهداه عن الضلال. كقولك: سقاه عن العيمة[1] أي: أبعده عنها بالسقي، وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أي: يصدقون بها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني: جعله سالماً لله خالصاً له.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

سمى معنى القول ومؤداه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب، ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض: الجساسة. جاء في الحديث: أنّ طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب (١٠٩٩). وروي: لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج في

١٠٩٩ ـ أخرجه الثعلبي في «تفسيره» من طريق محمد بن النضر بن محمد الأودي عن أبيه عن سفيان =

---

(١) قوله «سقاه عن العيمة» هي شهوة اللبن كما في الصحاح. (ع)

وصفها: رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن إيل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرّ، وذنب كبش، وخف بعير/ ٢/ ٧٢أ وما بين المفصلين: اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام. وروي: لا تخرج إلا رأسها، ورأسها يبلغ أعنان السماء[1]، أو يبلغ السحاب. وعن أبي هريرة: فيها من كل لون، وما بين قرنيها فرسخ للراكب. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنها تخرج ثلاثة أيام، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن النبي ﷺ: أنه سئل: من أين تخرج الدابة؟ فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله (١١٠٠)، يعني المسجد الحرام. وروي: أنها تخرج ثلاث خرجات: تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهراً طويلاً، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة. وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية

= الثوري عن شهاب بن عبد الرحمن بن طارق عن ربعي بن حراش عن حذيفة مرفوعاً.
وينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/ ١٩) وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله: «وهي الجساسة» وسيأتي بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده. انتهى.

١١٠٠ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٥) من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان.
وأخرجه الحاكم (٤/ ٤٨٤) وأبو داود الطيالسي (ص ١٤٤) رقم (١٠٦٩) والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٩٣) رقم (٣٠٣٥) وفي «الأحاديث الطوال» (٢٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) رقم (٣٤) كلهم من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي عن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبي الطفيل عن أبي سريحة الأنصاري به وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد وهو أبين حديث في ذكر دابة الأرض ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: طلحة بن عمرو الحضرمي ضعفوه وتركه أحمد .اهـ.
وطلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي متروك ينظر «الكامل» (٤/ ١٤٢٦ ـ ١٤٢٧) و«التقريب» (١/ ٣٧٩)، والتهذيب (٥/ ٢٣ ـ ٢٤).
وللحديث شاهد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٠ ـ ٢١).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبري من طريق ربعي عن حذيفة بن اليمان: «ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الدابة فقلت: يا رسول الله من أين تخرج فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله... الحديث وروى الحاكم والبيهقي في «الشعب» وإسحاق في مسنده وابن مردويه من طريق أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد رفعة قال: يكون للدابة ثلاث خرجات ـ إلى أن قال: بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها: المسجد الحرام، لم يردهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام... الحديث وفيه: ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يقودها هارب، وفي الباب عن ابن عباس أخرجه ابن مردويه مطولاً. انتهى.

---

(١) قوله «ورأسها يبلغ أعنان السماء» في الصحاح «أعنان السماء»: صفائحها وما اعترض من أقطارها، كأنه جمع عنن. والعامة تقول: عنان السماء. (ع)

بلسان ذلق[1] فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأنّ خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. وعن السدي: تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المشرق، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك. وروي: تخرج من أجياد[2]. وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل، وينشق الصفا مما يلي المسعى، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصى موسى وخاتم سليمان، فتضرب المؤمن في مسجده، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنكت نكتة بيضاء تفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو تترك وجهه كأنه كوكب درّي، وتكتب بين عينيه: مؤمن: وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه: كافر. وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم، ثم تقول لهم: يا فلان، أنت من أهل الجنة. ويا فلان، أنت من أهل النار. وقرئ: تكلمهم، من الكلم وهو الجرح. والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم. ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضاً، على معنى التكثير. يقال: فلان مكلم، أي مجرّح. ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أنّ المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر: لنحرقنه، بقراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لنحرقنه، وأن يستدل بقراءة أبيّ: تنبئهم. وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأن الناس، على أنه من الكلام. والقراءة بإن مكسورة: حكاية لقول الدابة، إما لأنّ الكلام بمعنى القول. أو بإضمار القول، أي: تقول الدابة ذلك. أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك. فإن قلت: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت: قولها حكاية لقول الله تعالى. أو على معنى بآيات ربنا. أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده، وأنها من خواص خلقه: أضافت آيات الله إلى نفسها، كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلاده. ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار، أي: تكلمهم بأن.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله (فوجاً) فإن الفوج الجماعة الكثيرة. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ وعن ابن عباس

---

(١) قوله «بلسان ذلق» أي طلق، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «تخرج من أجياد» جبل بمكة، سمي بذلك لموضع خيل تبع، وسمي «قعيقعان» لموضع سلاحه. (ع)

ـ رضي الله عنهما ـ: أبو جهل والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة: يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار. فإن قلت: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين، كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

الواو للحال، كأنه قال: أكذبتم بها بادىء الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب. أو للعطف، أي: أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها؛ فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بها للتبكيت لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك ـ وقد عرفته رويعي سوء ـ: أتأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتدىء به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبهته[1] وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح؛ لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة/ ٢/ ٧٢ب: يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها، وذلك قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم، وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله. فإن قلت: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿لِيَسْكُنُوا۟﴾ و﴿مُبْصِرًا﴾ حيث كان أحدهما علة والآخر حالاً؟ قلت: هو مراعى من حيث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصراً: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

---

(١) قوله «لتبهته» أي تدهشه وتحيره. (ع)

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فإن قلت: لم قيل ﴿فَفَزِعَ﴾ دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة، قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وعن الضحاك: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر: منهم موسى عليه السلام، لأنه صعق مرّة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقرئ: أتوه. وأتاه. ودخرين، فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ. والداخر والدخر: الصاغر. وقيل: مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿جَامِدَةً﴾ من جمد في مكانه إذا لم يبرح. تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ مرّا حثيثاً كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها، كما قال النابغة في صفة جيش [من الطويل]:

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ ... وُقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرِّكَابُ تَهَمْلَجُ[1]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ من المصادر المؤكدة، كقوله: (وعد الله). و(صبغة الله) إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت

---

(١) للنابغة. والأرعن: الجبل العالي. والطود: الجبل العظيم، فاستعار الأرعن للجيش؛ ثم شبهه بالطود ليفيد المبالغة في الكثرة. والحاج: اسم جمع واحده حاجة. والركاب: المطي لا واحد له من لفظه. والهملجة: السير الرهو السهل، فارسي معرب. والهملاج: السريع. يقول: حاربنا العدو بجيش عظيم، تظنهم واقفين لحاجة لكثرتهم، والحال أن ركابهم تسرع السير.
ينظر: ديوانه ص ١٨٧، لسان العرب (صرد)، تاج العروس (صرد)، المعاني الكبير ص (٨٩١)، تأويل المشكل (٦)، السبع الطوال (٤٦١)، البحر المحيط (٧/ ١٠٠)، الدر المصون (٥/ ٣٢٩).

أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: صنع الله يريد به: الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، حيث قال: صنع الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عام بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره[1]، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق[2]. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام، جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان. ألا ترى إلى قوله: (صنع الله)، و(صبغة الله)، و(وعد الله)، و(فطرة الله): بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، لا يخلف الله الميعاد ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وقرئ: تفعلون، على الخطاب. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يريد الإضعاف وأنّ العمل يتقضى والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. وقيل: فله خير منها، أي: له خير حاصل من جهتها وهو الجنة. وعن ابن عباس؛ الحسنة كلمة الشهادة. وقرئ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مفتوحا مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. ومنصوباً مع تنوين فزع. فإن قلت: ما الفرق بين الفزعين؟ قلت: الفزع الأوّل: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ، من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به؛ كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب[3] وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية. وأمّا الثاني: فالخوف من العذاب. فإن قلت: فمن قرأ ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين ما معناه؟ قلت: يحتمل معنيين. من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأمّا ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم، فلا يخلون منه؛ لأنّ البشرية تقتضي ذلك. وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه. ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف/ ٢/ ٧٣أ: وهو خوف النار. أمن: يعدى بالجار وبنفسه، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾. وقيل: السيئة: الإشراك. يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة، فكأنه قيل: فكبوا في النار، كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ ويجوز أن يكون ذكر الوجوه

---

(١) قوله «ومكانة إضماده ورصانة تفسيره» الذي في الصحاح «ضمد الجرح، يضمده ضمداً»: شده بعصابة وفيه «الرصين» المحكم الثابت. وقد رصن ـ بالضم ـ رصانة. (ع)

(٢) قوله «وأخرس الشقاشق» في الصحاح «شقشق الفحل شقشقة»: هدر. وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة، فإنما يشبه بالفحل. (ع)

(٣) قوله «وقلب وجاب» في الصحاح «وجب القلب وجيباً»: اضطرب. (ع)

إيذاناً بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أمر سوله بأن يقول: ﴿أُمِرْتُ﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ من التلاوة أو التلوّ كقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾. والبلدة: مكة حرسها الله تعالى: اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحبّ بلاده إليه، وأكرمها عليه؛ وأعظمها عنده. وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة[1] استقبلها بوجهه الكريم فقال: «إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» (١١٠١)، وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط

١١٠١ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم عبد الله بن عدي بن الحمراء وأبو هريرة وعبد الله بن عباس.

فأما حديث عبد الله بن عدي:

فأخرجه الترمذي (٥/ ٧٢٢) ـ كتاب المناقب (٥٠) ـ باب في فضل مكة ـ (٣٩٢٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧) ـ كتاب المناسك (٢٥) ـ باب فضل مكة ـ (٣١٠٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩) ـ كتاب الحج ـ باب فضل مكة (٤٢٥٢) والحاكم في مستدركه (٣/ ٧) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٢) (٣٧٠٨) والدارمي في سننه (٢/ ٢٣٩).

كلهم من طريق الليث عن عقيل عن الزهري أن أبا سلمة بن عبد الرحمن أخبره أن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ على راحلته ـ فذكر الحديث وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس عن الزهري نحوه، ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وحديث الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن حمراء عندي أصح.

وأخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩) (٤٢٥٣) وعبد بن حميد في مسنده (ص ١٧٧ ـ ١٧٨) حديث رقم (٤٩١) كلهم من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب به.

وأخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) والحاكم (٣/ ٤٣١) من طريق شعيب عن الزهري به وله طرق أخرى عن الزهري عند أحمد (٤/ ٣٠٥).

---

(١) قوله «فلما بلغ الحزورة» هي تل صغير كما في الصحاح. (ع)

وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضادّ لربه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها[1]، ولا ينفر صيدها. واللاجىء إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء[2]: اللهم بارك لنا في سكناها، وآمنا فيها شرَّ كل ذي شرّ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك. وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن: عن أبيّ وأن

= وأخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٨٠) عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن ابن أخي ابن شهاب عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم.

ـ حديث أبي هريرة:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢/ ٤٨٠) كتاب الحج: باب فضل مكة حديث (٤٢٥٤) من طريق معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به ومن طريق معمر أيضاً أخرجه عبد الرزاق وإسحاق بن راهويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٢).

وأخرجه أيضاً البزار كما في حديث المسجد السابق. وقال: ولا نعلم رواه عن الزهري إلا معمر.

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه الترمذي (٥/ ٧٢٣) كتاب المناقب: باب في فضل مكة حديث (٣٩٢٦) وابن حبان (١٠٢٦ ـ موارد) وأبو يعلى (٥/ ٦٩) رقم (٢٦٦٢) والحاكم (١/ ٤٨٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أيضاً ابن حبان.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وابن أبي شيبة، والدارمي، وعبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل، كلهم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: «رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ واقفاً على الحزورة، وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه. ورواه ابن أخي الزهري عن عمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدي بن الخيار: أخرجه الطبراني. وصححه الدارقطني لوجهين. ورواه النسائي، وإسحاق، والبزار، والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة. ولفظه للبيهقي: «ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». قال البزار: تفرد به معمر هكذا. وقال البيهقي: وهم فيه معمر، وقال الترمذي: رواه محمد بن عمر بن أبي سلمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وقول الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي أصح. وقال البيهقي أيضاً: ورواية محمد بن عمرو وهم. وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه الترمذي من رواية ابن خثيم عن سعيد بن جبير وأبي الطفيل جميعاً فيه نحو: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك». انتهى.

---

(١) قوله «لا يختلي خلاها... إلخ»: أي لا يجز حشيشها، ولا يقطع شجرها. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم الله تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها، لأنه أخص =

أتل: عن ابن مسعود. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه، والدخول في الملة الحنيفية، واتباع ما أنزل عليّ من الوحي؛ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ولم يتبعني فلا عليّ، وما أنا إلا رسول منذر، وما على الرسول إلا البلاغ، ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله. وذلك حين لا تنفعهم المعرفة. يعني في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان، وانشقاق القمر. وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا. وقيل: وهو كقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية وكل عمل يعملونه، فالله عالم به غير غافل عنه لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات[1] وهو من وراء جزاء العاملين. قرئ: تعملون، بالتاء والياء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ طس سليمان: كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله» (١١٠٢).

١١٠٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

أوصافها وأسنده إلى ذاته تأكيداً لشرفها ثم قال: (وله كل شيء)، فجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المعظمة. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً قد ملك هذه البلدة المكرمة وملك إليها كل شيء إنه لعظيم الشأن» قال أحمد: وتحت قوله (وله كل شيء): فائدة أخرى سوى ذلك، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

(١) قال محمود: «لأن العالم بالذات لا يجوز عليه الغفلة» قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم، وإيهام أن سليها داخل في تنزيه الله تعالى، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا يعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى، لأن علمه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا.